تفسير سورة (ق)

دراسة تحليلية

أ.د. صالح يوسف حسن كاتب(*)

• **مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن نجد له وليا مرشدًا.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنجينا من هول يوم القيامة.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، حلاه ربه بأجل صفات الإيمان وشرح صدره بالقرآن، وجعل ذكره على كل لسان صلى الله عليه وآله وأصحابه وأحبابه وسلم تسليماً كثيرًا.

أما بعد،،،

فإن القرآن الكريم كتاب الله المعجز، أنزله على قلب نبيه صلى الله عليه وسلم بلسان العرب، ليكون حجة عليهم، ونسخ به جميع الكتب، فكان إنزاله أشد نازلة لديهم وجعل أعظم معجزاته دوام آياته، وتناسبها، واتساقها، وتآلفها، وجعله باقيًا مع بقاء الأزمنة محفوظًا في الصدور والسطور ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(1).

(*) عضو هيئة التدريس بقسم التفسير وعلوم القرآن بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة – كلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية

(1) سورة فصلت آية ٤٢.

ولما كان تفسير القرآن الكريم من أشرف العلوم أشرف موضوعه الذي هو القرآن الكريم، كلام رب العالمين، فيه نبأ من قبلنا، وخير من بعدنا، وهو الجد ليس بالهزل من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم.

ولما كان لي شرف التخصص في هذا العلم الشريف، رأيت أنه من الواجب على أن أدلى بدلوي فيه، فقمت بعون الله وتوفيقه بتفسير سورة «ق» إحدى سور القرآن المكية التي تعالج قضية التوحيد، وإثبات البعث وأنه حق وكذا إثبات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان قدره الله في الخلق والإحياء والإماتة والبعث، وقص أنباء الرسل وما لحقهم من الأذى، وأنباء أسمهم وما نزل بهم من عذاب وعقاب، تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ووعيدًا للمكذبين.

جامعًا في ذلك بين أصالة القديم، وجدة الجديد بأسلوب علمي مفيد.

فإذا وفقت فمن الله تعالى، وإن كانت الأخرى فمن نفسي ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[1].

- **خطة البحث:**

يشتمل هذا البحث على مقدمة وتمهيد وتسعة مباحث وخاتمة وفهارس.

١- **المقدمة**: وقد بنيت فيها شرف القرآن الكريم وأهم مقاصد سورة (ق).

٢- **التمهيد**: ويشتمل على ما يأتي:

(١) سورة آل عمران آية ٨.

١- اسم السورة وفضلها.

٢- نوع السورة وترتيبها.

٣- عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها.

٤- أهم مقاصد السورة.

٥- مناسبة السورة لما قبلها.

٣- **تفسير آيات السورة الكريمة** وقد قسمته إلى تسعة مباحث وكل مبحث يتناول موضوعًا من أهم موضوعات هذه السورة الكريمة وهذه المباحث هي:

المبحث الأول : في بيان معنى الحروف المقطعة المفتتح بها أوائل بعض السور القرآنية، وبيان شرف القرآن الكريم.

المبحث الثاني : في تكذيب قريش للرسول صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث : في إنكار الكفار للبعث والدليل عليه.

المبحث الرابع : في بيان العبرة من سير الأولين.

المبحث الخامس : علم الله الشامل لكل شيء.

المبحث السادس : بيان سكرات الموت وحالة الإنسان عند الاحتضار،وعاقبة الأشرار.

المبحث السابع : وعد الله للمؤمنين بنعيم الجنة.

المبحث الثامن : تسلية النبي صلى الله عليه وسلم على تكذيب المشركين والمكذبين وبيان تصارعهم.

المبحث التاسع : بيان أهوال البعث يوم القيامة وكمال قدرة الله تعالى.

الخاتمة : وفيها أهم نتائج البحث ثم الفهارس.

• **التمهيد**

ويشمل على ما يلي:

١- اسم السورة وفضلها.

٢- نوع السورة وترتيلها.

٣- عدد آيات السورة وكلماتها وحروفها.

٤- أهم مقاصد السورة.

٥- مناسبة السورة لما قبلها.

أولاً: اسم السورة: تسمى سورة (ق) وذلك لافتتاحها بها وتسمى أيضا بسورة (الباسقات) لقوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ آية [٧] ومعنى بإسقات أي طويلات مرتفعان.

فضلها: لم يرد في فضل سورة (ق) حديث صحيح مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم سوى الحديث الضعيف الذي جاء فيه: من قرأ سورة (ق) هون الله عليه تارات(١) الموت وسكراته وحديث على: يا على من قرأها بشره ملك الموت بالجنة، وجعل الله منكرا وتكبراً عليه رحيما(٢) ورفع الله بكل قرأها درجة في الجنة(٣).

---

(١) تارات: جمع تارة وهي الحالة، فيحتمل أنه يريد بحالاته سكراته، فعطف قوله: وسكراته عليه عطف تفسير. وقيل المراد بتاراته: ما فيه من الغشي والإفاقة. وانظر بصائر ذوي التمييز تحقيق محمد علي النجار ج ٤٣٨/١ ط٢ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

(٢) أفراد لأنه أراد جعل كلا منهما رحيماً وإلا قال «رحيمين».

(٣) الحديث موضوع كما جاء في شهاب البيضاوي ٩٤/٨.

وكل ما ذكره المفسرون عن فضل هذه السورة هو أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الفجر في الركعة الأولى «ق القرآن المجيد» أي سورة (ق).

وأخرج مسلم وأحمد، وأهل السنن عن أبي واقد الليثي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في العيد بـ (ق) و(اقتربت) أي سورة القمر.

أخرج ابن أبي شيبة، وأبو داود وابن ماجة، والبيهقي عن أم هشام ابنة حارثة قالت: ما أخذت (ق والقرآن المجيد) إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس[١].

ثانيًا: نوع السورة: السورة المكية بالاتفاق، وهذا قول الحسن، وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: هي مكية إلا أية وهي قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[٢].

وما بعدها إلى آخر السورة آية [٤٥] وهي قوله تعالى ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾[٣].

ترتيبها: سورة (ق) هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، أما ترتيبها في النزول فكان بعد سورة (المرسلات) ولم يسبقها سوى اثنين وثلاثين سورة ولم يسبقها سوى اثنين وثلاثين سورة ومعظم السور التي سبقتها كانت من الجزء الأخير من القرآن الكريم[٤].

---

(١) انظر صحيح مسلم.

(٢) سورة ق آية ٣٨.

(٣) البصائر ١/٤٣٧.

(٤) الإتقان في علوم القرآن ١/٢٧.

ثالثا: عدد آياتها وكلمتها وحروفها: آياتها خمس وأربعون آية.

كلماتها: ثلاثمائة وخمس وسبعون كلمة. **وحروفها:** ألف وأربعمائة وأربع وسبعون حرفًا.

رابعًا: أما مقاصد سورة (ق) فهي ما يأتي:

١- إثبات النبوة للرسول صلى الله عليه وسلم، وبيان حجة التوحيد.

٢- الإخبار عن إهلاك القرون الماضية بسبب تكذيبهم للحق لما جاءهم، وللنبي صلى الله عليه وسلم.

٣- علم الحق تبارك وتعالى بضمائر الخلق وسرائرهم.

٤- ذكر الملائكة الموكلين على الخلق، المشرفين على أقوالهم.

٥- ذكر بعث القيامة، وذل العاصين يومئذ، ومناظرة المنكرين بعضهم بعضا في ذلك اليوم، وتغيظ الجحيم على أهله من الآية [١٩] وهي قوله ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ* يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

٦- تشرف الجنة بأهلها، وبيان حال المتقين فيها من الآية [٣١] وهي قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ

* مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

٧- تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وتطمين قلبه، ببيان أن مشركي قريش لن ينالوا منه شيئا ولن يخلصوا إليه بسوء، وأن قوة الله أهلكت قروناً قبلهم كانت أشد منهم بطشاً، وأقوى منعة فوق قوتهم وجبروتهم، ولو شاء لأهلكهم كما أهلك من سبقوهم من الطغاة المتجبرين ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾(١).

٨- بيان عظمة الله وقدرته والتأكيد على ما سبق ذكره من الآيات في ذلك، وذلك في خبره تعالى عن خلق السموات الأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات وأنواع الكائنات في ستة أيام، وما أصابنا من تعب ولا إعياء مع قلة الزمن، وضخامة هذه الأجرام، وتعدد أنواعها وأشكالها، واختلاف أحوالها، وتباين حركاتها. الآية [٣٨] من السورة وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

٩- أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالصبر على أقوال المشركين واليهود والإعراض عنهم، والالتجاء إليه سبحانه بالتسبيح والتحميد ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾(٢).

١٠- ذكر نداء إسرافيل بنفخة الصور.

(١) آية ٦٣ من السورة.

(٢) آية ٣٩ من السورة.

١١- بيان قدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة وحده لا شريك له وأنه هو القوى القادر الذي يحيى الخلق في الدنيا بعد أن كانوا عدما، ثم يميتهم بعد استيفاء أجلهم بعد أن كانوا أحياء، ثم يبعثهم من قبورهم بعد أن صاروا ترابًا، وذلك بقوله تعالى مؤكدًا ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾(١).

١٢- وعظ الرسول صلى الله عليه وسلم الخلق بالقرآن المجيد بعد أمر الله تبارك وتعالى له. الآية [٤٥] من السورة وهي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ والله أعلم.

خامسًا: مناسبة السورة لما قبلها: أنه سبحانه وتعالى قال في آخر سورة الحجرات ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٢).

أي قل أيها الرسول الكريم.... لهؤلاء الأعراب المنافقين على سبيل التوبيخ: أتعرفون الله بدينكم وتخيرونه به زاعمين أنكم مخلصون فيه، حيث قلتم آمنا على سبيل التفاخر والتباهي. والحال أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض، من الكليات والجزيئات دون أن يخفي عليه شيء من أحوال المخلوقات الكائنة فيهما، ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلا يحتاج إلى من يعلمه ويعرفه، فلا يخفي عليه سركم ونجواكم.

وفي هذه السورة أيضا وهي سورة (ق) أقسم الله بالقرآن المجيد، على

(١) من الآية ٤٣- ٤٤ من السورة.

(٢) آية ١٦ من سورة الحجرات.

أنه أنزل القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم لينذر به الناس وليكون معجزة مؤيدة له باقية إلى قيام الساعة، أو إنك منذر بالبحث وما وراءه، فكأنه قيل: إذا أنزلناه لتنذر الناس بالبحث وما وراءه فلم يؤمنوا،بل جعلوا كلا من المنذر والمنذر به عرضة للتنكير والتعجب مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والتلقي بالقبول.

والمعنى: أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف، وذي الخير الوفير الذي يجد فيه كل طالب مقصودة إنك- أيها الرسول الكريم لصادق فيما تبلغه من ربك من أن البعث حق، والحساب حق، والجزاء حق ولكن الجاحدين لن يؤمنوا بذلك فمن كل ما تقدم نجد أن الرابط بين أخر سورة (الحجرات) وأول سورة (ق) قوي وواضح.. والله أعلم.

- **تفسير آيات السورة:**

وقد قسمته إلى تسعة مباحث كما ذكرت في خطة البحث، وسوف نتناول هذه المباحث بالتفسير بعون الله وتوفيقه.

- **المبحث الأول:(في بيان معنى الحروف المقطعة المفتتح بها أوائل بعض السور القرآنية... وبيان شرف القرآن الكريم)**

الآية رقم [١]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ سورة (ق) من السورة القرآنية التي افتتحت ببعض حروف التهجي، وللعلماء في بيان معاني هذه الحروف أراء متعددة وأقوال متنوعة، نذكر بعضها منها ثم نذكر الرأي الراجح من هذه الأقوال، والأقرب إلى الصواب منها حسبما يراه جمهور العلماء، وحسب ما توصلنا إليه من

هذه الآراء الكثيرة المتنوعة والتي مبناها الاجتهاد القائم على الأدلة العلمية والعقلية والخيرية.

ومن هذه الأقوال التي ذكرها المفسرون في بيان معاني هذه الحروف المقطعة في أوائل السور ما يأتي:

١- أن المعنى المقصود من هذه الأحرف الهجائية المفتتحة بها السور القرآنية غير معلوم لنا بل هو مما أستأثر الله تعالى يعلمه ولم يطلع عليه أحد من خلقه.

وذلك لحكمة من حكمه تعالى السامية وهي الابتلاء والاختيار وتمحيص العباد ليميز الله الخبيث من الطيب والمؤمن الصادق من المنافق، بل إنه تعالى أقام لهم أعلام بيانه، ودلائل هدايته، شواهد رحمته في غير تلك الفواتح من كتابه بين آيات وسور كثيرة لا تعتبر تلك الفواتح إلا قطرة من بحر.

فأما الذين أمنوا فيعلمون أنها الحق من ربهم، وإن لم يفهموا معناها ويدركوا مغزاها، ثقة منهم بأنها صادرة من لدن حكيم، عمت حكمته ما خفي وما ظهر من معاني كتابه، ووسع علمه كل شيء عرفه الخلق أم لا[١]. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ﴾[٢].

٢- أنها اسم من أسماء القرآن- لما روي عن مجاهد رضي الله عنه أنه قال (ألم) اسم من أسماء القرآن. وهذا قول الكلبي والسدى أيضًا[٣].

(١) انظر تفسير سورة (مريم) أ.د/ إبراهيم نيده ص ٩٥ وما بعدها ط/ ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.

(٢) سورة آل عمران آية ٧.

(٣) الطبري ١/١٤٧ ط دار الغد. وانظر في رحاب تفسير سورة (مريم) أ.د إبراهيم نبذه.

٣- أنها فواتح افتتح الله بها القرآن وهو قول سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد.

٤- أنها أسماء السور وقد استدلوا على قولهم هذا بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "يس قلب القرآن"(١).

قال الإمام ابن كثير، ويعتضد هذا (يعني أصحاب هذا القول) بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة: بـ(آلم)- السجدة (وهل آتي على الإنسان) (٢).

٥- إنها اسم الله الأعظم وهو قول السدى عن ابن عباس.

٦- أنها قسم أقسم الله تعالى به، وهو من أسمائه، وهذا قول على بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسمائه. وكذلك قول عكرمة رضي الله عنه حيث قال: (ألم) قسم.

٧- أنها حروف هجاء موضوع. وهذا القول مروي عن مجاهد حيث قال فواتح السور كلها (ق) و(ص) و(حم) و(طسم) و(الر) وغير ذلك هجاء موضوع.

وهؤلاء: منهم من قال: إن المقصود من ذلك هو إفهام المخاطبين بأن الذي سيتلى عليهم من الكلام الذي عجزوا عن معارضته والإتيان بمثله، إنما

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي في كتاب فضائل القرآن وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من طريق حميد بن عبد الرحمن. انظر سنن الترمذي تحقيق أحمد شاكر ط الحلبي والترغيب والترهيب للمنذري ٢/٣٧٦.

(٢) ابن كثير ١/٦٥ ط الشعب، والفخر الرازي ١/٣٦٠، الطبري ١/١٤٨.

تركب من مثل هذه الحروف التي في الفواتح، وهي معروفة لهم يتخاطبون بما يدور عليها، ولا يخرج عنها، فليس مؤلفًا" من شيء غريب عليهم ومع ذلك يتحداهم ويعجزون.

وهذا الرأي هو أشهر ما جاء عن محققي هذا القول، وهم المتكلمون(١).

إلى غير ذلك مما قاله المفسرون في معاني هذه الحروف.

والمختار من هذه الأقوال التي ذكرناها غير الرأي الأول فيها، هو ما قاله الإمام النيسابوري في تفسيره، حيث قال: والمختار من هذه الأقوال عند الأكثرين القول: بأنها أسماء للسور.

والرأي الراجح عندنا في معنى هذه الفواتح، بعد هذه الدراسة المستفيضة في معنى هذه الفواتح هو الرأي الأول، وهو رأي السلف، ورأي جمهور العلماء وهو الرأي القائل، بتفويض علمها إلى الله تعالى، وأنها مما استأثر الله تعالى بعلمها، ولم يطلع عليه أحد من خلقه، وذلك لحكمة من حكمه السامية، وهي الإبتلاء والإختيار وتمحيص العباد، وليميز الله الخبيث من الطيب، والمؤمن الصادق في إيمانه من المزيف الكاذب.

وهذا ما هو نميل إليه ونرجحه لظهوره، ووضوحه، وقوته، وإجماع الأمة على ذلك. والله أعلم وهناك أقوال أخرى في معنى هذه الحروف، تركناها لضعفها كقول بعضهم:

إن (ق) اسم جبل محيط بجميع الأرض..... وغير ذلك من الأقوال التي لم يقم دليل نقلي أو عقلي على صحتها... والله أعلم.

---

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقاني ٢٢٨/١ط عيسى الحلبي، الطبري ١٤٩/١، في رحاب تفسير سورة (مريم) أ.د/ إبراهيم نيده.

بيان شرف القرآن الكريم وفضله:

القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم بلسانٍ عربي مبين ليكون معجزة مؤيدة له، باقية إلى قيام الساعة، وهو ذو مجد وشرف عظيم وفضل كبير لكثرة ما يتضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية وقد أقسم الله به في سورة (ق) حيث قال سبحانه وتعالى ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ ووصفه بلفظ (المجيد) بمعنى ذي المجد والشرف وكثرة الخير.

فالقرآن الكريم قدره رفيع وشرفه عظيم، وفضله كثير، شرفه الله وفضله على سائر الكتب السماوية، لكثرة خيره الوفير، وحفظه من التغيير والتبديل، يجد فيه كل طالب مقصوده، لذا قال الله تعالى مبينًا لنا شرف وفضل القرآن الكريم ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]. وقال تعالى مخاطبا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾[3].

وقد بينت السنة النبوية المشرفة علو شرف ومنزلة القرآن الكريم وعظيم فضله، ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه حدث عن جبريل عليه السلام عن الرب تبارك وتعالى أنه قال (من شغله القرآن عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه[4].

(١) سورة البروج آية ٢١، ٢٢.
(٢) سورة فصلت آية ٤١، ٤٢.
(٣) سورة الحجر آية ٨.
(٤) رواه الترمذي وقال: حديث غريب. قال الحافظ: رجاله ثقات. والحديث أخرجه أيضا الدارمي والبيهقي في شعب الإيمان وانظر تحفة الأحوذي ٢٤٥/٨ والترغيب والترهيب ٢٤٢/٢، ٢٤٣ وبصائر ذوي التمييز ٥٧/١.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «القرآن شافع مشفع، وما حل مصدق من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار»(١).

وعن علي رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنه. قلنا يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وفصل ما بينكم، وخبر ما بعدكم. وهو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله. ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين. وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا يلتبس له الألسن، ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء، ولا ينقضي عجائبه. هو الذي لم يلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبًا من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم»(٢).

وعن سهل بن معاذ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ القرآن وعمل به ألبس والده تاجًا يوم القيامة ضوؤه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا، فما ظنكم بالذي عمل بهذا»(٣).

والقرآن مأدبة الله في أرضه، أي أن القرآن غذاء للروح فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه. ومعنى ما حل: أي ساع. وقيل: خصم مجادل.

(٢) الحديث أخرجه الترمذي بسند فيه الحارث الأعور عن علي رضي الله عنه، وفيه كلام، ويميل القرطبي إلى توثيقه كنز العمال ١/٤٥.

(٣) رواه أبو داود والحاكم وقال الحاكم: صحيح الإسناد.

قال «إن هذا القرآن مأدبة الله فاقبلوا مأدبته ما استطعتم، إن هذا القرآن حبل الله[1]، والنور المبين، والشفاء النافع عصمة[2] لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يزيغ[3] فيستعتب[4]، ولا يعوج فيقوم، ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق[5] من كثرة الرد اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول (الحد) حرف ولكن ألف ولام حرف وميم حرف»[6] إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في ذلك. والله أعلم.

- **المبحث الثاني: تكذيب الكفار للرسول صلى الله عليه وسلم:**

الآيات من [٢] إلى الآية [٥]

﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ * بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾.

«تفسير الآيات مع بيان المناسبة وذكر المعاني الغامضة»

في قوله تعالى (والقرآن المجيد) الواو هنا للقسم، به هو القرآن الكريم، وجواب القسم محذوف لدلالة ما بعده عليه، وهو استبعادهم لبعثة الرسول

(١) أي السبب الموصل إلى رضا الله.

(٢) أي مانع من الوقع فيما يغضب الله.

(٣) لا يزيغ: لا يتناقص ولا يتضارب.

(٤) فيستعتب: فسيصلح لأنه معجز.

(٥) ولا يخلق: أي لا يبلي.

(٦) رواه الحاكم من رواية صالح بن عمر عن إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عنه وقال: تفرد به صالح بن عمر عنه وهو صحيح وانظر الترغيب ٢٤٨/٢.

صلى الله عليه وسلم– وتكذيبهم للبعث والحساب. فيكون الجواب مقدر بقوله: لتبعثن وقوله (المجيد) صفة للقرآن. أي ذي المجد والشرف الرفيع القدر الكثير الخير. ولفظ المجيد مأخوذ من المجد بمضي السعة والكرم، وأصله من مجدت الإبل وأمجدت، إذا وقعت في مرَعى مخصب واسع الجنبات كثير الأعشاب[1].

والمعنى: أقسم بالقرآن ذي المجد والشرف وذي الخير الوفير الذي يجد فيه كل طالب مقصوده، إنك أيها الرسول الكريم لصادق فيما تبلغه عن ربك من أن البعث حق، والحساب حق، والجزاء حق ولكن الجاحدين لن يؤمنوا بذلك.

في قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ قال الألوسي قوله (بل) للإضراب الانتقالي عما ينبئ عنه جواب القسم المحذوف، فكأنه قيل: إنا أنزلنا هذا القرآن لتنذر الناس بالبعث وما وراء فلم يؤمنوا به، بل جعلوا كلا من المنذر به عرضة للتنكير والتعجب، مع كونهما أقرب شيء إلى العقول والتلقي بالقبول[2].

قوله تعالى: ﴿أَن جَاءهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

أن في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم، والمعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم أي من جنسهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وضمير الجمع يعود على الكفار، ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

---

(١) مختار الصحاح ص١٢١، والمفردات في غريب القرآن ٤٦٤/٤، والمصباح المنير ص ٢٩١.

(٢) تفسير الآلوسي ١٧٢/٢٦ ط دار إحياء التراث العربي في لبنان.

أن في موضع نصب على تقدير لأن جاءهم، والمعنى: بل عجب الكفار لأن جاءهم منذر منهم أي من جنسهم، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وضمير الجمع يعود على الكفار، ثم فسر ما حكاه عنهم من كونهم عجبوا بقوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وفيه زيادة تصريح وإيضاح وإضمارهم أولاً في قوله (أن جاءهم) للإشعار بتعينهم بما أسند إليهم، وإظهارهم ثانيا في قوله ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ لتسجيل الكفر عليهم.

ثم أكدوا تعجبهم وبينوا أهم ما ينكرونه ويتعجبون منه فقالوا ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ يعنون أنهم إذا ماتوا وتحولت لحومهم وعظامهم إلى تراب، لا يعقل أن تعود إليهم الحياة مرة أخرى، وجواب الاستفهام مقدر، أي: نرجع(١).

ومعنى الآية: أئذا متنا وتحولت لحومنا وعظامنا إلى تراب نرجع إلى الحياة مرة أخرى؟ ذلك الرجوع إليها حينئذ رجوع بعيد عن التصديق وعن القبول.

وهذا الاستبعاد ناشيء عن قصر نظرهم وسوء فهمهم فإن من خلقهم من تراب بعيد خلقهم منه، وهو أهون من البدء. وبعد هذا التصوير الأمين لحججهم وأقوالهم، رد الله عليهم، وعاب سرعة تكذيبهم للحق من غير روية فقال في الآيتين [٤، ٥] ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ أي أن بعثهم لا صعوبة فيه على الله تعالى- فقد علم سبحانه وتعالى علما "تاما" دقيقا ما تأكله الأرض من أجسادهم وعظامهم بعد موتهم، ومن علم ذلك لا يعجزه أن يعيدهم إلى الحياة مرة أخرى.

---

(١) التفسير الوسيط ١٠٥٩/٣، الألوسي ١٧٢/٢٦ وما بعدها، وفتح القدير ٨٨/٥.

ثم أكد سبحانه وتعالى ذلك وقرره بقوله تعالى ﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾.

أي وعندنا بجانب علمنا الشامل الدقيق. كتاب حافظ لجميع أحوال العباد. ومسجلة فيه أقوالهم وأفعالهم، والمراد بهذا الكتاب: اللوح المحفوظ.

ثم كشف سبحانه وتعالى- عن حقيقة أحوالهم، وعن الأسباب التي دفعتهم إلى إيثار الباطل على الحق فقال ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ هذا إضراب أتبع الإضراب الأول وهو إنكارهم للبعث، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع منه ومن تعجبهم، وهو التكذيب بالحق وهو النبوة الثابتة بالمعجزات في أول وهلة من غير تفكر ولا تدبر.

قال الإمام الألوسي رحمه الله: وكون التكذيب المذكور أفظع: من حيث أن تكذيبهم بالنبوة تكذيب بالمنبأ به أيضا وهو البعث وغيره. أو لأن من إنكار النبوة في نفسه أفظع من إنكار البعث.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي مضطرب مختلط. فتارة يقولون: إنما يعلمه بشر وما هو من كلام الله، وأخرى يقولون: إنه شعر. وثالثة يقولون: هو أساطير الأولين ألخ (مريج) مختلط أصل المرج الخلط. والمروج الإختلاط. يقال مرج أمرهم: اختلط وتزعزع، وفقد الثبات والاستقرار والصلاح[١].

وفي هذا الرد عليهم تصوير بديع معجز حيث بين سبحانه وتعالى.... بأنه عليم بما تأكله الأرض من أجسادهم المغيبة فيها، وبتناقصها وأن كل أحوالهم مسجلة في كتاب حفيظ، وأنهم عندما فارقوا الحق الثابت كذبوه،

(١) المفردات ٤/٤٦٦.

سادت الأرض من تحتهم واضطربت، واختلطت عليهم الأمور والتبست، فصاروا يلقون التهم جزافًا دون أن يستقروا على رأي، أو يجتمعوا على كلمة(١).

• **المبحث الثالث: إنكار الكفار للبعث والدليل عليه:**

الآيات من [٦] إلى الآية [١١]

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

مناسبة الآيات لما قبلها: الآيات السابقة فيها رد على الكافرين الذين أنكروا البعث بدفع حججهم الباطلة التي ذكروها، وكشف عن حقيقة أحوالهم، وعن الأسباب التي دفعتهم إلى إيثار الباطل على الحق ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ وفي هذه الآيات شروع في بيان الأدلة على قدره الله تعالى- وعلى أن البعث حق وعلى أن استبعادهم له إنما هو من جهالاتهم وانطماس بصائرهم، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.

«تفسير الآيات مع بيان المناسبة بين الآيات والمعاني الغامضة»

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء﴾ إلى آخر الآية. الهمزة هنا

(١) تفسير سورة (ق) أ.د/ محمد سيد طنطاوي ط المعاهد الأزهرية.

للاستفهام الإنكاري والتعجب من جهلهم، وهي متعلقة بمحذوف، والفاء عاطفة عليه أي: أغفلوا أو عموا فلم ينظروا حين كفروا بالبعث (إلى السماء فوقهم) بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ وجعلناها على هذه الصفة مرفوعة بغير عماد تعتمد عليه ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بما جعلنا فيها من المصابيح، أي جعلنا لها زينة بالكواكب على أبداع نظام، وأكمل إحكام ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ (١)- أي ليس فيها شقوق ولا خلل، والمراد سلامتها من كل عيب وخلل.

قال الكساني: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق، والمراد: نظر اعتبار وتفكر، وأن القادر على إيجادها قادر على الإعادة.

ومعنى الآية: أعميت قريش حيث أشركوا وأنكروا البعث – أعموا – فلم ينظروا إلى الكواكب فوفهم بحيث يشاهدونها كل وقت، كيف بنيناها وأحكمناها، وجعلناها زينة للسماء الدنيا ومالها من شقوق ولا فتوق، فهي تامة السلامة من كل عيب.

وأحب أن ألفت نظر القارئ لهذا التفسير أن القبة الزرقاء التي ترى خلالها الكواكب ما هي إلا الغلاف الجوي، وفوقه ظلمة حالكة السواد، كما اكتشف ذلك علماء الفلك، فإذا أطلق عليه لفظ (سماء) فهو إطلاق لغوي، فإن كل ما علاك سماء(٢).

ثم تبن سبحانه قدرته في بسط الأرض، بعد بيان مظاهر قدرته في رفع السماء فقال ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾

---

(١) فروج: جمع فرج وهو الشق. ومنه قول امرئ القيس: تسد به فرجها من دبر غريب القرآن ٣٧٥/٤، المصباح المنير ص٢٤١، القرطبي ٦/١٧.

(٢) التفسير الوسيط ١٠٦٢/٣، الألوسي ١٧٥/٢٦.

أي بسطناها في رأي العين، وإن كانت في حقيقتها مكورة، وهو لا ينافي كرويتها التامة أو الناقصة من جهة القطبين لمكان العظم، أي لأن عظم سطحها يجعل الناظر إليها يراها كأنها مسطحة محددة.

نقول: من هذا نعلم أن الأرض مثل الكرة، غير أنها منبعجة[1] من جهة القطبين، وهي تدور في الفضاء وتحت الشمس، وتنتقل في مدارها من برج إلى برج، ويترتب على ذلك وجود الليل والنهار، والربيع والصيف، والخريف والشتاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي ألقى فيها جبالاً ثوابت تمنعها من الاضطراب فقوله ﴿رَوَاسِيَ﴾ جمع راية بمعنى ثابتة وهو صفة لموصوف محذوف.

﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[2] أي أنبتنا في الأرض من كل صنف حسن بهيج ويسر الناظرين إليه.

وقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ علتان لما تقدم منتصبتان بالفعل الأخير منها، أو بفعل مقدر أي: فعلنا ما فعلنا من مد الأرض، ومن تثبيتها بالجبال، ومن إنبات كل صنف حسن من النبات فيها، أي لأجل أن نبصر عبادنا بدلائل وحدانيتنا وقدرتنا، ونذكرهم بما يجب عليهم نحو خالقهم من شكر وطاعة ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ متعلق بكل من المصدرين السابقين وهما تبصره وذكرى أي كل من هذه التبصرة والذكرى كائنة لكل عبد منيب أي كثير الرجوع إلى ربه بالتدبر في بدائع صناعته ودلائل قدرته.

ومعنى الآية: أن الله بسط الأرض في رأي العين ومعهدها ليتيسر السير

---

(١) أي ناقصة.

(٢) مأخوذه من البهجة بمعنى الحسن يقال: بهج الشيء فهو بهيج أي حسن جميل.

عليها والانتفاع بها، وخلق فيها جبالاً وثوابت تحفظها من أن تميد وتضطرب بمن عليها، وأنبت فيها بقدرته من كل صنف حسن يسر الناظرين والآكلين، وقد فعل ذلك تبصيرًا وتذكيرًا لكل عبد منيب راجع إلى الحق، فالصنعة البديعة تدل أوضح الدلالة على الصانع المبدّع المنفرد في إبداعه.

ثم انتقلت الآيات بعد ذلك إلى بيان مظاهر قدرته تعالى في إنزال المطر، بعد بيان مظاهر قدرته في خلق السموات والأرض وما اشتملنا عليه من كائنات، فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ أي ماء كثير المنافع والخيرات للناس والدواب والزروع ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ كثيرة كما يقتضيه المقام أي أشجار ذات ثمار.

أي أنبتنا الماء بساتين كثيرة ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي ما يقتات ويحصد من الحبوب.

والمعنى: وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير وغيرهما، فالإضافة لما بينهما من الملابسة، و﴿الْحَصِيدِ﴾ أي ما يقتات ويحصد من الحبوب.

والمعنى: وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد من البر والشعير وغيرهما، فالإضافة لما بينهما من الملابسة، و﴿الْحَصِيدِ﴾ بمعنى المحصود صفة لموصوف مقدر، أي وحب الزرع أو النبت الحصيد فهذا التركيب من باب حذف الموصوف وإقامة الصفة تمامه للعلم به.

وخص الحب لأنه المقصود، ولأن احتياج الناس إليه أكثر من غيره فصار كأنه المقصود بالبيان قوله تعالى (وَالنَّخْلَ) معطوف على جنات: أي

وأنبتنا به النخل، وتخصيصها بالذكر مع دخولها في الجنات للدلالة على فضلها على سائر الأشجار قوله تعالى ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ منصوبه على الحال من النخل، وهي حال مقدرة، لأنها وقت الإنبات لم تكن باسقة، ومعنى ﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوال مرتفعات من البسوق بمعنى الارتفاع والعلو. يقال بسق فلان على أصحابه: من باب دخل- إذا فاقهم وزاد عليهم في الفضل(١).
والنخل: اسم جنس يذكر ويؤنث ويجمع ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ في محل نصب على الحال من النخل.

الطلع: هو أول ما يخرج من ثمر النخل. ويسمى الكفرى يقال: طلع الطلع طلوعا: إذا كان في أول ظهوره(٢). وفي البخاري (النضيد) الكفرى مادام في أكمامه، ومعناه منضود بعضه على بعض فإذا أخرج من أكمامه فليس بنضيد.

والنضيد: بمعنى المنضود، أي المتراكب بعضها فوق بعض، مأخوذ من نص فلان المتاع ينضده إذا رتبه ترتيبًا حسنا(٣).

المعنى: أي أنبتنا أيضا في الأرض بعد إنزالنا الماء عليها من السحاب، النخل الطوال، الزاخر بالثمار الكثيرة التي ترتب بعضها على بعض بطريقة جميلة.

ثم بعد أن يبين سبحانه وتعالى قدرته في إنزال الماء من السماء، وإنبات الزرع.. أي أنبتنا ما أنبتنا من الجنات ومن النخل الباسقات، تبين الحكمة من

---

(١) مختار الصحاح للرازي ص ٣٤٠ ط الحبي- مصر.
(٢) بالمفردات ٣٠٦/٣.
(٣) القرطبي ٧/١٧.

ذلك فقال: (رِزْقًا لِّلْعِبَادِ) أي ليكون رزقًا نافعًا للعباد. وقوله تعالى (رِزْقًا لِّلْعِبَادِ) منصوب على المصدرية أي رزقناهم رزقًان أو على العلة أي: أنبتنا هذه الأشياء للرزق.

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلده ميتا﴾ أي وأنبتنا وأحيينا بذلك الماء الذي أنزلناه بلدة مجدبة لا ثمار فيها ولا زرع وتذكر (مَّيْتًا) لكون البلدة بمعنى المكان.

قوله تعالى (كَذَلِكَ الْخُرُوجُ) جملة مستأنفة لبيان أن الخروج من القبور عند البعث، مثله كمثل هذا الإحياء للأرض التي كانت جدباء ميتة، بأن أنبت فيها من كل زوج بهيج بعد أن كانت خالية من ذلك.

فوجه الشبه بين إحياء الأرض بالنبات بعد جدبها، وبين إحياء الإنسان بالعبث بعد موته استواء الجميع في أنه جاء بعد عدم.

المعنى الإجمالي للآية: ونزلنا من السحاب ماء مباركًا كثير الخيرات- أنزلناه في جميع الأقاليم في أوقات مناسبة لمصالح العباد، فأنبتنا بهذا الماء المبارك بساتين كثيرة مشتملة على أطيب أنواع الثمار والفاكهة، وأنبتنا به حب الزرع الذي يحصد ويقطع ليستخرج منه حب كالبر والشعير والذرة وغيرها، وأنبتنا به النحل طويلات لها طلع منضود بعضه فوق بعض.

أنبتنا كل ذلك- رزقا للعباد، يستوجب الإيمان والشكر، وأنبتنا بذلك الماء أرضا جدبة لا نبات فيها مثل هذه الحياة الناشئة عن الإحياء خروج الموتى من القبور، فالنبات يذبل ويجف بعد ازدهاره يصبح ميتا، والله تعالى يعيد إحياءه ويبعثه بعد الموت، إن الذي قدر على ذلك كله ليس عليه بعزيز أن يعيد خلقكم للبعث، والثواب، وإحياء الموتى مثل ذلك، وما ذلك على الله بعزيز إلا تعقلون؟

• **المبحث الرابع: العبرة من سير الأولين:**

الآيات من [١٢] إلى الآية [١٥]

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ * أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

المناسبة: بعد أن بنيت الآيات السابقة مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الكون البديع، وقدرته تعالى على البعث بالأدلة والبراهين الواضحة الساطعة.

جاءت هذه الآيات المستأنفة لتقرير البعث، وأنه حق، ومتفق عليه من جميع الرسل وأن الأمم السابقة لقريش كذبت رسلها وأنكروا البعث فعقابهم الله تعالى.

وفي ذلك تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم وتهديد للكفر.

تفسير الآيات مع بيان المناسبة والمعاني الغامضة.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ استئناف وارد لتقرير حقيقة البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام عليها وتكذيب منكريها، وفي ذلك أيضا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم تهديد للكفر.

والمعنى: لا تحزن أيها الرسول الكريم- لما أصابك من أذى من هؤلاء المشركين الجاحدين المكذبين فقد سبقهم إلى التكذيب والكفر والجحود «قوم نوح» عليه وسلم.

فإنهم قد قالوا في حقه: إنه مجنون كما حكي عنهم ذلك في قوله تعالى

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ معطوف على ما قبله، والرس في لغة العرب: هي البئر التي لم تبن بعد بالحجارة، وقيل: هي البئر مطلقًا وقيل: هو واد وأصحابه قيل: هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام، وهم قومه. وقيل: إنهم من بقايا قبيلة ثمود، بعث الله إليهم واحدًا من أنبيائه، فكذبوه ورموه في تلك البئر، أي القوا به فيها فأهلكهم الله سبحانه بسبب ذلك.

وقيل: هم الذين قتلوا حبيبا النجار عندما جاء يدعوهم إلى الدين الحق، وكانت تلك البئر بأنطاكية وبعد قتلهم له ألقوه في البئر، وهم من قوم عيسى عليه السلام. وقيل: هم قوم شعيب عليه السلام كما ذكرنا.. وقيل: هم أصحاب الأخدود.

والراجح من هذه الأقوال: القول الأخير وهم أصحاب الأخدود، وهذا هو الذي اختاره ابن جرير رحمه الله تعالى في تفسيره حيث قال: إن أصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذي جاء الحديث عنهم في سورة (البروج) [2] و(ثمود) المراد بهم قوم صالح عليه السلام... الذين كذبوه فأهلكهم الله تعالى ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾.

المراد بعاد: قوم هود- عليه السلام- الذين اغتروا بقوتهم وكذبوا نبيهم، فأخذهم الله تعالى أخذ عزيز مقتدر. (وَفِرْعَوْنُ) المراد به: هو وقومه الذين أرسل إليهم موسى عليه السلام فكذبه وقال لقومه ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى *

(١) سورة القمر آية ٩.

(٢) تفسير ابن جرير.

﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ قوله تعالى ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ﴾ هم قوم الذين أتوا بفاحشة لم يسبقوا إليها. قالوا: ووصفهم الله تعالى بأنهم إخوانه لأنه كانت ترابطه بهم رابطة المصاهرة، حيث إن امرأته - عليه السلام- كانت منهم.

وليس المراد بالأخوة القرابة من النسب: قوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام كما قال تعالى ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[1] والأيكة: مجتمع الشجر ويطلق عليها لفظ الأجمة، وهو اسم لمنطقة مليئة بالأشجار، ومكانها الغالب بين الحجاز وفلسطين حول خليج العقبة، ولعلها المنطقة التي تسمى بمعان.

وكان قوم شعيب يعبدون الأوثان، ويطففون في المكيال فنهاهم شعيب عن ذلك ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله تعالى[2].

قوله تعالى ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهو تبع الحميري اليماني، وكان مؤمنا وقومه كفار، ولذا لم يذم هو وذم قومه، قالوا: وكان اسمه أسعد أبو كرب، وقد أشار القرآن إلى قصتهم في آيات أخرى منها قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾[3].

وقد بينت السنة النبوية المشرفة أن تبعاً كان رجلاً صالحًا بين قومه الكافرين أخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: كان تبع رجلاً صالحًا، ألا ترى أن الله ذم قومه ولم يذمه. وأخرج الإمام أحمد وغيره عن سهل

(١) سورة المنازعات آية ٢٤، ٢٥.

(٢) سورة الشعراء آية ١٧٦ وما بعدها.

(٣) الآلوسي ١٧٧/٢٦، وتفسير سورة (ق) أ.د/ أحمد طنطاوي.

الساعدي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم».

وقد طلب من قومه أن يؤمنوا كما آمن فأمتنعوا، فنزلت من السماء نار فأحرقت من لم يؤمن منهم(١).

قوله تعالى ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾- أي فيما أرسلوا من الشرائع التي من جملتها البعث الذي أجمعوا عليه قاطبة- والتنوين في (كل) عوض عن المضاف إليه.

أي كل قوم من هؤلاء القوام السابقين كذبوا رسولهم الذي جاء لهدايتهم.

وأفرد الضمير باعتبار لفظ الكل، والمراد بالكلية: الكثير، وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم كما ذكرنا سابقًا (فحق وعيد) بيان لما حل بهم بسبب تكذيبهم لرسلهم، أي كل واحد من هؤلاء الأقوام كذبوا رسولهم، فكانت نتيجة ذلك أن وجب ونزل بهم وعيدي، وهو العذاب الذي توعدتهم به كما قال تعالى ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(٢).

فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك(٣).

---

(١) الأوسي في تفسير سورة الدخان.

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٧٥/٧.

قوله تعالى ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

بعد أن عرضت الآيات لمصارع المكذبين، عادت السورة إلى تقرير الحقيقة التي كفر بها الجاهلون والجاحدون، وهي حقيقة البعث، وأن البعث حق، فقال ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ الآية. الاستفهام للإنكار والتقريع والتوبيخ، والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث الذي أنكرته الأمم أي: أفعجزنا بالخلق حين خلقناهم أولاً ولم يكونوا شيئًا، فكيف نعجز عن بعثهم؟ (عيينا) من العي بمعنى العجز، يقال: عييت بالأمر: إذا عجزت عنه ولم أعرف وجهه[1]. (واللبس): الخلط. يقال: ليس على فلان الأمر- من باب ضرب- إذا اشتبه واختلط عليه، ولم يستطع التمييز بين ما هو صواب وما هو خطأ[2]. ثم ذكر سبحانه أنهم في شك من البعث فقال ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي في شك وحيرة واختلاط من خلق مستأنف، وهو بعض الأموات، ومعنى الإضراب: أنهم غير منكرين لقدرته تعالى على الخلق الأول ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

المعنى الإجمالي للآيات: كذب بالحق قبل قريش قوم نوح، مع أنه كان ينصحهم ويطلب منهم الإيمان به، كما كذبت أصحاب الرس، وكذبت قوم ثمود، وقوم عاد، وفرعون وقومه وقوم لوط الذين كانوا إخوانه، وقوم تبع الحميري، كل هؤلاء كذبوا جميع رسلهم، فوجب عليهم وعيد ربك، وحقت عليهم كلمة العذاب ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي:

---

(١) مختار الصحاح ص ٢٣٠.

(٢) المصباح المنير ص ٢٢٨.

أقصدنا خلقهم من تراب ثم من نطفة فعيينا وعجزنا عن تحقيق ما أردناه وقصدناه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟

كلا لم نعجز عن خلقهم كذلك، فلماذا ينكرون بعثنا إياهم بعد موتهم، وهو في القياس أهون من بدئهم، إنهم معترفون بالخلق الأول صادرًا عنا فلا ينكرونه، بل هم في شك واضطراب من خلق جديد، وهو إحياؤهم بعد موتهم لينال كل امرئ جزاء ما قدم من خير أو شر[1].

- **المبحث الخامس: علم الله الشامل لكل شيء**

الآيات نمن [١٦] إلى الآية [١٨]

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

المناسبة: في الآيات السابقة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عما أصابه من إيذاء قومه المشركين الجاحدين المكذبين، وذلك ببيان ما نزل بالأمم السابقة له من العذاب بسبب تكذيبهم لرسلهم، ثم خلصت بعد ذلك إلى تقرير حقيقة البعث وبيان قدرة الله تعالى على ذلك. وفي هذه الآيات أيضًا تقرير لعلم الله الشامل لكل شيء، وبيان بأن سبحانه وتعالى قادر على كل شيء يعلم السر وأخفى، وأنه خلق الإنسان ويعلم ما تحدثه نفسه من الخواطر، وما يستكن في ضميره فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾

---

(١) التفسير الوسيط ١٠٦٤/٣ وما بعدها، الألوسي ١٧٧/٢٦ وما بعدها، التفسير الواضح ج ٧٢/٢٦ ط الاستقلال الكبرى- مصر وفتح القدير ٨٨/٥ وما بعدها.

تفسير الآيات مع بيان المناسبة والمعاني الغامضة:

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ هذا كلام مبتدأ يتضمن ذكر بعض القدرة الربانية فيقول تعالى: ولقد خلقنا الإنسان وأبدعنا صورته، وأكملنا خلقته جسدًا وروحًا وعقلاً ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ أي ما تحدثه به من الخواطر. والوسوسة: هي الصوت الخفي، ومنه وسواس الحلي، أي صوت احتكاك بعضه ببعض(١).

و(ما) موصولة والضمير عائد عليها، والباء صلة، أي ونعلم الأمر الذي تحدثه نفسه به، ويصح أن تكون (ما) مصدر به، والضمير للإنسان، والباء للتعدية أي ونعلم وسوسة نفسه إياه.

والمتدبر في هذه الآية يرى أن افتتاحها يشير إلى مضمونها، لأن التعبير بخلقنا، يشعر بالعلم التام بأحوال المخلوق، إذ خالق الشيء وصانعه أدرى بتركيب جزيئاته.

أي: والله لقد خلقنا هذا الإنسان بقدرتنا، ونعلم علمًا تاما ما يحدثه به نفسه من أفكار وخواطر وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ تقرير وتوكيد لما قبله.

حبل الوريد: هو غرف في باطن العنق يسري فيه الدم، وهو ممتد من ناحية حلقه إلى عاتقه، وهما وريدان من عن يمين وشمال وقال الحسن: الوريد: الوتين، وهو عرق معلق بالقلب، والإضافة بيانية أي حبل هو الوريد، وهو تمثيل للقرب بقرب ذلك العرق من الإنسان، أي نحن أقرب إليه

---

(١) مختار الصحاح ص ٢٣٤ والمفردات ٥٢٣/٤.

من حبل وريده، **والمعني**: أنه سبحانه وتعالى أعلم بحاله سرًا أو علنًا فهو أقرب إليه من حبل الوريد الذي يمتد في عنقه وليس المراد منه القرب الذاتي، لأنه تعالى ليس له مكان، فهو من باب التمثيل والتشبيه، وليس من باب الحقيقة.

وعن الإثرم أنه يقال: في العنق الوريد، وفي القلب الوتين، وفي الظهر الأبهر، وفي النزاع والفخذ الأكحل والنسا، وفي الخنصر الأسلم(١).

قال الإمام القشيري رحمه الله تعالى: في هذه الآية هيبة وفزع وخوف لقوم، وروح وأنس وسكون قلب لقوم(٢).

قال الإمام ابن كثير في تفسيره: الضمير في (نحن) يعود إلى الملائكة، فقال رحمه الله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني ملائكته تعالى، أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه. وجمهور المفسرين على أن الضمير هنا يعود إلى الله تعالى.

ونحن نقول: إن ما ذهب إليه ابن كثير وإن كان مقبولاً، لأن قرب الملائكة، من العبد بإقدار الله لهم على ذلك. إلا أن ما ذهب إليه الجمهور أرجح في الدلالة على قرب الله تعالى لأحوال عباده وأظهر في معنى الآية، وأزجر للإنسان عن ارتكاب المعاصي.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (إذ) ظرف منصوب بما في أقرب من معنى الفعل، وأفعل التفضيل يعمل في الظروف لأنه يكفيها رائحة الفعل، وإن لم يكن عاملاً في غيرها فاعلاً أو مفعولاً به،

---

(١) فتح القدير ٩٢/٥، التفسير الوسيط ١٠٦٧/٣ وما بعدها، الألوسي ١٧٨/٢٦.

(٢) حاشية الجمل ١٩٢/٤.

أي هو سبحانه أعلم بحال الإنسان من كل قريب حين يتلقى المتلقيان الحفيظان ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأن الله تعالى غني عن استحفاظ الملكين، فإنه تعالى شأنه أعلم منهما، ومطلع على ما يخفي عليهما لكن الحكمة اقتضته منها إقامة الحجة على العبد يوم القيامة كما قال ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾[1] واختار بعضهم كونها (إذ) مفعولا به لفعل تقديره اذكر، لبقاء القربية على إطلاقها، ولأن أفعل التفضيل ضعيف في العمل وإن كان لا مانع من عمله في الظرف، والكلام مسوق لتقرير قدرته عز وجل وإحاطة علمه سبحانه وتعالى (المتلقيان) وهما الملكان جميع ما يصدر عن هذا العبد أو الإنسان. ومفعول التلقي في الفعل الذي يتلقى، وفي الوصف الذي هو المتلقيان محذوف، والتقدير إذ يتلقى المتلقيان جميع ما يصدر عن الإنسان فيكتبانه. قوله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ بيان ليقظة الملكين وحرصهما على تسجيل كل ما يصدر عن الإنسان. و(قعيد) بمعنى المقاعد أي الملازم للإنسان، كالجليس بمعنى المجالس.

وإنما قال (قَعِيدٌ) ولم يقل وهما اثنان، لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه.

وقال الجوهري، وغيره من أئمة النحو: وفعول مما يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ والمعنى: أي ما يتكلم به الإنسان من كلام، فليلفظه ويرميه من فيه إلا لديه أي: لدى ذلك.

---

(١) الإسراء من الآية ١٣ وما بعدها.

اللفظ (رقيب): أي ملك يرقب قوله ويكتبه، والرقيب: الحافظ المتتبع لأمور الإنسان الذي يكتب ما يقوله من خير أو شر، فكاتب الخير هو ملك اليمين، وكاتب الشر ملك الشمال.

و(العتيد): الحاضر المهيأ لذلك لا يفارقه.

يقال: عتد الشيء- ككرم- عتاده وعتادا، أي حضر، فهو عتد وعتيد، ويتعدى بالهمز وبالتضعيف، فيقال: أعتده صاحبه وغنده، إذا هيأه وأعده.

والمراد: أن الملكين اللذين أحدهما عن يمينه والثاني عن شماله، كلاهما مراقب لأعمال الإنسان، حاضر لكتابتها.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(١).

واختلف العلماء فيما يكتبانه. فقال الإمام مالك وجماعة: يكتبان كل شيء حتى الأنين في المرض، وفي شرح الجوهرة للقاني قال: مما يجب اعتقاده أن لله ملائكة يكتبون أفعال العباد من خير أو شر أو غيرهما، قولا كانت أو عملا أو اعتقادا، هما كانت أو عزماً أو تقريرًا، اختارهم سبحانه لذلك فهم لا يهملون من شأنهم شيئًا فعلوه قصدا أو تعمدًا أو ذهولاً ونسيانًا صدر منهم في الصحة أو في الصحة أو في المرض.

وفي بعض الآثار على أن الكلام النفسي لا يكتب. وذهب بعض العلماء منهم عكرمة- رضي الله عنه- إلى أن الملكين لا يكتبان المباح من الأعمال، لأنه لا ثواب فيه ولا عقاب، والكتابة للجزاء، فلا يكتبان إلا ما فيه ثواب

(١) سورة الإنفطار، آية ١٠، ١١، ١٢.

وعقاب، وقالوا: إن في الآية نعتا محذوفًا، سوغ حذفه العلم به، لأن كل الناس يعلمون أن الجائز لا ثواب فيه ولا عقاب، وتقدير النعت المحذوف: ما يلفظ من قول مستوجب للجزاء إلا ولديه رقيب عتيد(١). ونحن نرى أن كل هـذه الآراء مراده لأن لفظ الآية يحتملها ولورود الأحاديث الكثيرة فـي ذلـك، ولكننا نرجح الرأي الأخير لقوته فقد أخرج ابن أبي شيبه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في الآية قال: إنما يكتب الخير والشر، لا يكتب يا غلام، اسرج الفرس، يا غلام اسقني الماء، وقد ثبت في الصحيحين وغيرهما عـن النبي- صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إن الله غفر لهذه الأمة ما حدثت بـه أنفسها ما لم تعمل أو تكلم»(٢).

المعنى الإجمالي للآيات: ولقد خلقنا الإنسان جسدًا وروحًا وعقلاً، ونعلم ما تحدثه به نفسه من الخواطر خيرًا كانت أو شرًا، ونحن أقرب إليه علمًـا من حبل الوريد في عنقه- نحن أقرب إليه- حين يتلقى الملكـان المتلقيـان أحوال العبد الظاهرة والخفية ليسجلاها في صحيفة أعماله، وهذان الملكـان أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله، ما ينطق من قول إلا عنـده مراقـب ملازم له من الملكين الموكلين به، يكتب ما يصدر عنه من الأقـوال وكـذا الأفعال والنوايا.

---

(١) الآلوسي ١٨١/٢٦، فتح القدير ٩٢/٥ وما بعدها وأضواء البيان للشنقيطي ٦٥١/٧.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في التفسير والعلم والإيمان. وأخرجه البخاري فـي كتـاب العتق والطلاق والإيمان، ومسلم في الإيمان والطـلاق، وأبـو داود فـي الإيمـان والإطلاق، والنسائي وابن ماجة وابن حنبل في أبـواب مختلفـة، والحـاكم وقـال: صحيح.

• **المبحث السادس: بيان سكرات الموت وحالة الإنسان عند الاحتضار وموقف قرينه منه، وبيان عاقبة الأشرار:**

الآيات من [١٩] إلى الآية [٣٠]:

قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ * وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

المناسبة: بعدما ذكرت الآيات السابقة إنكار المشركين للبعث، وأثبتت بأقوى الحجج أنه سيحصل، وأن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة.

جاءت هذه الآيات لتبين حالة الإنسان عند الاحتضار، وما ينزل بهم من الموت.

تفسير الآيات مع بيان المناسبة والمعاني الغامضة:

قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي جاءت لكل إنسان سكرة الموت وشدته وغمرته وكربته التي تغشى الإنسان، وتغلب على عقله، ومعنى ﴿بِالْحَقِّ﴾: أنه عند الموت يتضح له الحق، ويظهر له صدق ما جاءت به الرسل من الإخبار بالبعث والوعد والوعيد، وقيل: الحق هو الموت، وقيل: في الكلام تقديم وتأخير أي: وجاءت سكرة الحق بالموت،

وكذا قرأ أبو بكر الصديق، وابن مسعود. والمعنى: أنها السكرة التي كتبت على الإنسان بموجب الحكمة وأنها لشدتها توجب زهوق الروح أو تستعقبه، والسكرة هي الحق، فأضيفت إلى نفسها لاختلاف اللفظين. والتعبير بالماضي هنا وفيما بعد لتحقق والوقوع، والباء قيل: للملابسة أي ملتبسة بالحق الذي لا شك فيه ولا باطل معه، وذلك كالتي في قوله «تنبت بالدهن»[(١)]، وقيل: للتعديه كما في قولك: جاء الرسول بالخبر، والمعنى: أحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي تعلقت به كتب، الله تعالى ورسله عليهم الصلاة والسلام، وقيل: الباء بمعنى مع، وقيل سكرة الحق سكرة الله تعالى على أن (الحق) من أسمائه تعالى، والإضافة هنا للتهويل لأن ما يجيء من العظيم عظيم.

وقرأ ابن مسعود- رضي الله عنه- (سكرات الموت) جمعًا، ويوافق ذلك ما أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه عن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت بين يديه ركوة[(٢)] أو علبة فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجهه ويقول "لا إله إلا الله إن للموت سكرات"[(٣)].

---

(١) سورة المؤمنين آية ٢٠.

(٢) الركوة: دلو صغيرة، والجمع (زكاه) مثل كلية وكلاب ويجوز (ركوات) مثل شهوة وشهوات. والركية: البئر، والجمع (ركايا) مثل عطيه وعطايا- المصباح المنير ص ١٢٥.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٨/١١٠ في المغازي باب: مرض النبي- صلى الله عليه وسلم وفاته، وفي الجمعة باب من كشوك بسواك غيره، وفي الجنائز باب ما جاء في قبر النبي- صلى الله عليه وسلم، وفي الجهاد وفي فضائل الصحابة: باب فضل عائشة، وفي النكاح.

قوله تعالى:(ذلك) إشارة إلى الموت الذي هو نهاية كل حي. ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتهرب في حياتك. يقال: حاد فلان عن الشيء يحيد حيدة: إذا تنحى عنه وابتعد. وقال الحسن: تهرب. الخطاب قيل: للفاجر لا للإنسان مطلقا، وقيل: هو للبر والفاجر، وهو قول الحسين بن عبد الله بن عباس، والراجح والله أعلم أن الخطاب للعموم، وفي بعض الآثار ما يؤيد القول بالعموم.

فقد أخرج ابن سعد عن عروة قال: لما مات الوليد بكت أم سلمة فقالت: يا عين فأبكى للوليد بن الوليد بن المغيرة كان الوليد أبو اليد فتى العشيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تقولي هكذا يا أمس لمة ولكن قولي ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾.

وأخرج أحمد وابن جرير عن عبد الله سولي الزبير بن العوام، قال: لما حضر أبا بكر الموت، بكت ابنته عائشة وتمثلت بقول الشاعر:

لعمرك ما يغني الحذار عن الفتى　　　إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

فقال لها أبو بكر– رضي الله عنه: لا تقولي ذلك يا بنتي، ولكن قولي: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾(١).

ثم بين سبحانه وتعالى نهاية هذه الدنيا فقال ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ أي النفخة الأخيرة للبعث ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي ذلك الوقت الذي يكون فيه النفخ الأخير في الصور، هو الوقت الذي توعد الله تعالى، فيه كل كافر بسوء المصير، كما وعد كل محسن بحسن الجزاء. وخص الوعيد بالذكر لتهويل هذا اليوم، وتحذير العصاة ما سيكون فيه.

---

(١) الألوسي ١٨٢/٦، وتفسير سورة (ق) أ.د. طنطاوي. وفتح القدير ٩٢/٥ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس المؤمنة والكافرة والمطيعة العاصية ﴿مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي ملك يسوقها إلى الحشر، وملك آخر يشهد لها أو عليها. جاء في الحديث مرفوعًا عن جابر بن عبد الله أن أحدهما ملك الحسنات. وثانيها: ملك السيئات اللذين كانا يكتبان أعمال العباد في الدنيا(١) والجملة في محل نصب على الحال من (كل) أو مستأنفة استئنافًا بيانًا.

ثم قال للكافر في هذا اليوم العصيب: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ﴾ تامة ﴿مِّنْ هَـذَا﴾ الذي تعانيه اليوم تشاهده، والجملة في محل نصب على الحال من (نفس) أو مستأنفة، مبنية على سؤال نشأ مما قبله كأنه قيل: فماذا يكون بعد النفخ ومجيء كل نفس معها سائق وشهيد؟ فقيل: يقال للكافر الغافل إذا عاين الحقائق التي لم يصدق بها في الدنيا من البعث وغيره ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ الذي تعانيه، وتنكير الغفلة وجعله فيها وهي فيه يدل على أنها غفلة تامة، وهكذا غفلة الكفرة عن الآخرة وما فيها ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ﴾ الذي كان في الدنيا، يعني رفعنا الحجاب الذي كان بينك وبين أمور الآخرة، ورفعنا ما كنت فيه من الغفلة عن ذلك.

قال الإمام الألوسي: الغطاء الحجاب المغطى لأمور المعاد وهو الغفلة والانهماك في أمور الدنيا، والألف بها وقصر النظر عليها، وجعل ذلك غطاء مجازًا، وهو إما غطاء الجسد كله أو العينين، وعلى كليهما يصح قوله، ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي نافذ لزوال المانع للأبصار، أما على الثاني فظاهر، وأما على الأول فلان غطاء الجسد كله غطاء للعينين أيضًا فكشفه يستدعي كشفه عنهما(٢).

(١) أخرجه أبو نعيمة في الحلبة.

(٢) اللوسي ١٨٤/٢٦.

والمعنى: فيصرك في هذا اليوم نافذ وقوي، تستطيع أن تبصر بـــه مـــا كنت تنكره في الدنيا من البعث والحساب والثواب والعقاب.

يقال فلان حديد البصر: إذا كان شديد الإبصار بحيث يرى أكثـــر ممـــا يراه غيره وهكذا نرى أن هذه الآيات الكريمة، قد بينت بأسلوب بليغ مـــؤثر، شمول علم الله تعالى- لكل شيء، كما بينت حالة الإنسان يوم القيامة، يـــوم تأتي كل نفس معها سائق وشهيد[1].

"بيان قرين الإنسان منه يوم القيامة، وبيان عاقبة الأشرار"

الآيات من [٢٣] إلى الآية [٣٠]:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ * قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ * مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

المناسبة: الآيات السابقة بينت حال الإنسان يوم القيامة، يوم تأتي كـــل نفس معها سائق وشهيد وفي هذه الآيات يحكى الله سبحانه وتعالى- ما يقوله قرين الإنسان له في ذلك اليوم فيقول: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ يعنـــي الملك الموكل به وهذا قول: الحسن وقتادة والضحاك. أي هذا ما عندي مـــن كتابة عدله معد محفوظ. وقال مجاهد: يقول هذا الذي وكلتني به من بنى آدم

(١) فتح القدير ٥/٩٣ وما بعدها، والتفسير الوسيط ٣/١٠٦٩ ومـــا بعـــدها والآلوســـي ٦/١٨٤ وما بعدها.

قد أحضرته وأحضرت ديوان عمله. وقيل المعنى: هذا ما عندي من العذاب حاضر. وعن مجاهد أيضًا: قرينة الذي قيض له من الشياطين، يقول ذلك أي: هذا ما قد هيأته لك بإغوائي وإضلالي. وقال ابن زيد: إن المراد هذا قرينة من الإنس.

قال الإمام الألوسي: في قوله ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي شيطانه المقيض له في الدنيا كما قال مجاهد، وفي الحديث المروي عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينة من الجن قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: "وإياي إلا أن الله تعالى- أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير"(١).

وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ جاء به مفردًا مع أن لكل إنسان قرينيين لأن المراد به الجنس. و(ما) نكرة موصوفة بالظرف ويعتيد، أو موصولة والظرف صلها، وعتيد. خير بعد خير لاسم الإشارة، أو خبر لمبتدأ محذوف(٢).

ثم يقال بعد ذلك للملكين الموكلين به، أو للسائق الشهيد: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي اقذفا واطرحا في جهنم باحتقار وغضب كل مبالغ في الكفر للمنعم ونعمته، مبالغ في العناد وترك الانقياد للحق مع علمه بأنه حق. والخطاب من الله- عز وجل- للسائق والشهيد.

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم (٢٨١٤) في صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا. وانظر شرح السنة للبغوي ١٤/٤٠٩ط المكتب الإسلامي.

(٢) الألوسي ٢٦/١٨٥.

قال الزجاج: هذا أمر للملكين الموكلين به وهما: السائق، والشهيد.

﴿عنيد﴾ ميالغ في العناد وترك الانقياد للحق. وقال قتادة: أي منحرف عن الطاعة.

يقال: عند عن الطريق: عدل عنه ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ صفات أخرى لذلك الكافر الملقي في جهنم أي مبالغ في المنع لكل خير يجب فعله. وهو بعدذ لك كثيرًا الاعتداء، وكثير الشك فيما هو حق وبر.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ في العبادة والطاعة. قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ يجوز أن يكون بدلا من (كل)، أو منصوبًا على الذم، أو بدلاً من (كل)، أو منصوبًا على الذم، أو بدلاً من (كفار) أو مرفوعًا بالابتداء، والخبر: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ بتأويل ويهينه. وهذا تأكيد للأمر الأول، أو بدل منه. ودخلت الفاء على قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ لأن الاسم الموصول مبتدأ يشبه الشرط في العموم، ولذا دخلت عليه الفاء. قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾ جملة مستأنفة لبيان ماي قوله القرين، والمراد بالقرين هنا الشيطان الذي قيض لهذا الكافر، أنكر أن يكون أطغاه وأجبره على الكفر والعصيان.

قال الألوسي: وإنما استؤنفت هذه الجملة استئناف الجمل الواقعة في حكاية المقاولة لما أنها جواب لمحذوف دل عليه قوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ﴾: فإنه مبني على سابقة كلام اعتذر ربه الكافر كأنه قال: هو أطغاني فأجاب قرينه بتكذيبه وإسناد الطغيان والفساد إليه(١).

(ولكن) هو الذي ﴿كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي عن الحق فدعوته، فاستجاب

---

(١) الألوسي ١٨٦/٢٦، فتح القدير ٦٤/٥ وما بعدها.

لي دون أن أكرهه أنا على هذا الضلال والكفر ولو كان من عبادك المخلصين لم أقدر عليه. وشبيه بهذه الآية قوله تعالى ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(1).

حينئذ يقول الله تعالى للكافرين وقرنائهم من الشياطين: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي لا تتنازعوا عندي في هذا الموقف، فإن التنازع لا فائدة فيه.

وهذه الجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: فماذا قال الله؟ فقيل ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي والحال أني حذرتكم على ألسنة رسلي من سوء وعاقبة الكفر، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم.

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي والحال أني حذرتكم على ألسنة رسلي من سوء وعاقبة الكفر، والآن لا مجال لهذا الاعتذار أو التخاصم.

قوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ أي لا خلف لوعدي، ولا معقب لحكمي، بل هو كائن لا محال، وهو أني (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) (2)، قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي، لا أعذبهم ظلما بغير

---

(1) سورة إبراهيم آية ٢٢.

(2) هود آية ١١٩.

جرم اجترموه، ولا ذنب أذنبوه، وصيغة المبالغة هنا لتأكيد نفي النظام بإبرازه ما ذكر من التعذيب بغير ذنب في معرض المبالغة في الظلم وهو لا يكون منه تعالى ويجوز أن يكون لرعاية جميع العبيد من قبيل قولهم: فلان ظالم لعبده، وظلام لعبيده. وقيل إن فعالا تأتي بمعنى فاعل أي: وما ربك بظالم لعبيده.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

إما مرتبط بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ ويوم ظرف معمول لظلام، وإما مفعول به لفعل محذوف تقديره: اذكر لهم يوم...

وهو سؤال وجواب جئ بهما على منهاج التمثيل، والتخييل لتهويل أمر جهنم وأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها يُطرح فيها من الجنة والناس فوج بعد فوج حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة، فالاستفهام للإنكار أي لا مزيد على امتلائها أو لأنها من السعة بحيث يدخلها وفيها فراغ وخلو فالاستفهام للتقرير أي فيها موضع للمزيد لسعتها، أو أنها لغيظها على العصاة تطلب المزيد(١).

قال ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية: يخبر الله تعالى أنه يقول لجهنم يوم القيامة: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدها أنه وعدها أنه سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو سبحانه يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى فيها وهي تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي هل بقي شيء تزيدوني؟

هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث فقد أخرج البخاري عن أنس بن مالك عن النبي– صلى الله عليه وسلم– قال: "يلقي في النار

---

(١) الألوسي ١٨٧/٢٦، فتح القدير ٩٥/٥ وما بعدها، التفسير الوسيط ١٠٧٤/٣ وما بعدها والبحر المحيط لأبي حيان.

الكفرة- وتقول هل من مزيد- حتى يضع سبحانه فيها قدمه فتقول: قط قط- أي حسبي حسبي".

وعن ابن عباس قوله: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي من مكان يزداد في وقال عكرمه: وهل في مدخل واحد؟ قد امتلأت[1].

قال الواحدي: أراها الله تصديق قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلما امتلأت قال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أي قد امتلأت ولم يبق في موضع لم يمتلئ[2] وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- «تحاجت الجنة والنار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم، فقال الله تعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله فتقول: قط قط، فهناك تمتلئ، ويزوي بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلق»[3].

- **المبحث السابع: وعد الله للمؤمنين بنعم الآخرة**

الآيات من [٢١] إلى الآية [٣٥]:

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) ابن كثير ٣٨١/٧ وتفسير سورة (ق) أ.د/ محمد سيد طنطاوي.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير تفسير سورة (ق) باب (وتقول هل من مزيد) ٥٩٤/٨ ومسلم وأحمد والترمذي.

(٣) أخرجه الشيخان البخاري في التفسير باب (وتقول هل من مزيد) ٥٩٤/٨.

المناسبة: شروع في بيان حال المتقين عند النفخة الثانية للصور، ومجيء النفوس إلى موقف الحساب، بعد عرض حال الكافرين.

وتفسير الآيات مع بيان المناسبة والكلمات الغامضة:

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ معطوف على قوله: ﴿ونفخ في الصور﴾ ومعنى الآية: وأدنيت الجنة وقربت للمتقين الذين وقوا أنفسهم من الكفر، وتحاشوا المعاصي، وقاموا على اتباع الأوامر واجتناب النواهي، فاستحقوا أحسن الجزاء، وأوفر النعيم في جنات تجمع كل أنواع المتاع من الأنهار والأشجار، وطيب الثمار، ومن الأزواج الكرام، والحور الحسان، والخدم من الولدان، وهي قريبة منهم في مكان غير بعيد بحيث يشاهدونها ولا يلحقهم تعب أو ضرر ولا مشقة في الوصول إليها، أو المراد: حصول هذا لهم غير بعيد لأنه آت لا محالة، وكل آت قريب. وقوله ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ صفة للموصوف مذكر محذوف، ولذا قال ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ ولم يقل: غير بعيدة أي وأدنيت وقربت للمتقين في مكان بعيد منهم، فصاروا يرونها ويشاهدون ما فيها من خيرات لا يحبط بها الوصف، ويجوز أن يكون منصوبًا على المصدرية، والأصل أزلفت إزلافًا غير بعيد. وفائدة قوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ بعد قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ للتأكيد والتقرير، كقولك: فلان قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل.....

قال الجمل: فإن قيل: ما وجه التقريب من أن الجنة مكان، والأمكنة يقرب منها وهي لا تقرب؟

فالجواب: إن الجنة لا تنقل.. ولكن الله يطوي المسافة بين المؤمن والجنة– حتى لكأنها حاضرة أمامه– وذلك من باب التكريم والتشريف للمؤمن(١).

(١) حاشية الجمل على الجلالين ١٩٧/٤.

واسم الإشارة في قوله: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ يعود إلى الجنة التي قربت لهم... والجملة على تقدير القول، أي قربت الجنة ممن هم أهلها، ويقال لهم عند دخولها: هذا الذي ترونه من نعيم هو ما سبق أن وعد الله تعالى به كل ﴿أَوَّابٍ﴾ أي: رَجَّاع إليه بالتوبة ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حافظ لحدوده وأوامره ونواهيه بحيث لا يتجاوزها، وإنما ينفذها ويقف عندها.

وقوله ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدل من (للمتقين) بإعادة الخافض، أو متعلق بقول محذوف هو حال أي: منقولاً لكل أواب. والأواب: الرجاع إلى الله بالتوبة بعد المعصية.

قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ﴾ أي من خاف مقام ربه دون أن يراه أو يطلع عليه، والجملة بدل أو عطف بيان من قوله: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ وقوله: ﴿بالغَيْبِ﴾ متعلق بمحذوف حال من ﴿الرَّحْمَنَ﴾ أي خشية وهو غائب عنه لا يراه ولا يشهده. قال الشوكاني: والخشية بالغيب: أن يحذف الله ولم يكن رآه.

وقال الضحاك والسدي: يعني في الخلوه لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى الستر وأغلق الباب ﴿وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي وجاء ربه يوم القيامة بقلب راجع إليه، مخلص في طاعته، مقبل على عبادته.

هؤلاء الذين يفعلون ذلك في دنياهم، يقال لهم يوم الحساب على سبيل التبشير والتكريم ﴿ادْخُلُوهَا بسَلام﴾ أي أدخلوا الجنة التي وعدكم الله إياها بسلام واطمئنان. وقيل: بسلام من الله وملائكته. وقيل: بسلامة من زوال النعم، وهو متعلق بمحذوف حال، أي: ملتبسين بسلام.

والإشارة بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إلى زمن ذلك اليوم وهو مبتدأ وخبره ﴿يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ ويماه اليوم الخلود: لأنه لا انتهاء له، بل هو دائم أبدًا، ولا موت فيه قولهم تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ﴾ أن لهؤلاء المتقون ما يشاءون ويشتهون في الجنة، مما تشتهيه أنفسهم وتلذ أعينهم من فنون النعم وأنواع الخير، ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم التي لم تخطر لهم على بال، ولا مرَّت لهم في خيال.

قال الألوسي: أخرج البيهقي في الرؤية، والديلمي عن علي- كرم الله وجهه- عن النبي- صلى الله عليه وسلم- في قوله ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ «يتجلى لهم الرب عز وجل»(١).

قال ابن كثير: وقوله ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ فقوله «الذين احسنوا الحسنى وزيادة﴾(٢)، وقد تقدم في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان، إنها النظر إلى وجه الله الكريم(٣).

• المبحث الثامن : في تسلية الله النبي - صلى الله عليه وسلم - على تكذيب المشركين والمكذبين السابقين

وبيان مصارعهم لله

الآيات من [٢٦] إلى الآية [٤٠]

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ *

---

(١) الحديث أخرجه البيهقي في الرؤية وفي البعث، وفي الباب أحاديث فأرجع إليها إن شئت.

(٢) سورة يونس، آية ٢٦.

(٣) ابن كثير ٣٨٤/٧.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

المناسبة: الآيات السابقة تحدثت عن المتقين وحسن عاقبتهم. وفي هذه الآيات تسلية للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم، وتطمين لقلبه ببيان أن مشركي قريش لن ينالوا منه شيئا ولن يخلصوا إليه بسوء، وأن قوة الله أهلكت قبلهم قرونا كانت أشد منهم بطشا، وأقوى منعة فوق قوتهم وجبروتهم، فقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

تفسير الآيات وبيان المناسبة والمعاني الغامضة:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ هنا خبرية بمعنى كثير بمعنى كثير، أي كثيرًا أهلكنا قبل قومك، وهي منصوبة بما بعدها، والقرن: يطلق على جماعة من الناس تعيش في زمن واحد، ومقداره مائة سنة– على الراجح ﴿مِنْ قَرْنٍ﴾ أي من أمة وهو تمييز (كم) وجملة ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ صفة، والبطش: السطوة والأخذ بشدة والمعنى: وأعلم أيها الرسول الكريم. أننا أهلكنا كثيرا من القرون الماضية التي كذبت رسلها، كقوم نوح وعاد وثمود، وقد كانوا أشد من قومك قوة وأكثر جميعًا، وما دام الأمر كذلك كما ذكرنا لك، فلا تحزن ولا تبتئس لما يصيبك من الكافرين المعاصرين لك، فنحن في قدرتنا أن ندمرهم تدميرًا.

والضمير في قوله: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ يعود إلى أهل تلك القرون المهلكة

الماضية والتنقيب: السير في الأرض والطواف فيها. والبحث بن أرجائها، يقال: نقب فلان في الأرض إذا ذهب فيها، واصل النقب: الخرق والدخول في الشيء، ومنه قولهم: نقب فلان الجدار، إذا أحدث فيه خرقًا والمراد به هنا: السير في الأرض، والتفتيش فيها.. و(الفاء) في قوله: ﴿فَنَقَّبُوا﴾ لمجرد التعقيب، وذلك إذا فسرناه بمعنى: السير في الأرض وللسببية إذا فسرناه بمعنى: التفتيش عن الشيء والبحث عن أحواله، لأن تصرفهم في الأرض سبب عن اشتداد بطشهم، وهي علي الوجهين عاطفة على معنى ما قبلها، كأنه قيل: أشد بطشهم فنقبوا في البلاد[1].

والاستفهام في قوله: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ للإنكار والنفي، والمحيص: المعدل والمهرب، يقال: حاص فلان عن الشيء يحيص حصيًا ومحيصًا، إذا عدل وحاد عنه، وحاول الهرب منه، **والمعنى**: أن هؤلاء السابقين المكذبين، كانوا أشد من مشركي قريش قوة وأكثر جمعًا، وكانوا أكثر ضربًا في الأرض وسيرًا فيها فلما نزل بهم بأسنا حاولوا الهروب والفرار، فلم يجدوا مكانًا يهربون فيه، بل نزل بهم عذابنا فدمرناهم تدميرًا.

فعليكم أيها المشركون أن تعتبروا بهم، حتى لا يصيبكم ما أصابهم فالمقصود بالآية كما ذكرنا تسلية الرسول- صلى الله عليه وسلم- وتحذير أعدائه من سوء عاقبة الكفر والعناد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي في إهلاك الأمم المكذبة السابقة، لتذكرة وعبرة وعظة، ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي لمن كان له قلب يعي ما يسمع، ويعقل ما يوجه

(١) الآلوسي ١٩١/٢٦، وتفسير سورة (ق) أ.د/ طنطاوي.

إليه، ويعمل بمقتضى هذا التوجيه الحكيم، فإن الذي لا يعي ولا يفهم بمنزلة العدم. قوله: ﴿أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي أصغى لما يتلى عليه من الوحي، وهو حاضر الذهن صادق العزم لتنفيذ ما جاء من الحق. وفي الكشاف ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر بفطنته، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب... أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي[١].

ثم بين سبحانه وتعالى- مظاهر قدرته ووحدانيته فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ وهذا استئناف كلام آخر لتأكيد ما قبله بتقرير قدرته تعالى على خلق السموات والأرض، وتمهيد لما بعده ببيان أن القادر على خلق السموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات لا يعجزه أمر من أمور الدنيا والأخرة.

قيل: إن هذه الآية تكذيب لليهود في زعمهم أن الله خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على العرش، وجعلوا هذا اليوم للراحة عندهم[٢] و(اللغوب) التعب والنصب والإعياء، مصدر لغب كدخل.

يقال: لغب فلان لغوبًا إذا اشتد تعبه وضعفه.

والمعنى: والله لقد خلقنا بقدرتنا السموات والأرض وما بينهما من أصناف المخلوقات، وأنواع الكائنات في ستة أوقات وما أصابنا من تعب ولا إعياء بسبب هذا الخلق العظم من قلة الزمن، وضخامة هذه الأجرام، وتعدد

(١) الكشاف ٣٩٢/٤.
(٢) فتح القدير ٩٩/٥.

أنواعها وأشكالها، واختلاف أحوالها، وتباين حركاتها، وذلك مما لا تفي بإحصائه القوى والقدر، فضلا عن إيجاده. ثم تتجه الآيات بعد ذلك على تسلية الرسول- صلى الله عليه وسلم- والترويح عنه بطلب الصبر على أقوال المشركين واليهود، والإعراض عنهم؛ والالتجاء إلى الله بالتسبيح والحمد بقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ أي هون على نفسك، ولا تحزن لقولهم، وتلق ما يرد عليك بالصبر، والفاء في قوله ﴿فَاصْبِرْ﴾ للفصيحة.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ الآية: أي نزه الله عما لا يليق بجنابه العالي مُلتبسا بحمده وقت الفجر ووقت العصر، وقبل: المراد صلاة الفجر، وقبل: الصلوات كلها، وقيل: صلّ ركعتين قبل طلوع الشمس وقبل غروبها. والقول الأولى أولى لقوته، وخصهما بالذكر لفضلهما وشرفها. وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ (من) للتبعيض، أي سبحه بعض الليل، وقيل: هي صلاة الليل والأول أرجح. ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ أي نزهه عن كل ما لا يليق به ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

أي وفي أدبار وأعقاب الصلوات فأكثر من تسبيحه عز وجل وتقديسه.

ومن الأحاديث التي وردت في فضل التسبيح بعد الصلوات المكتوبة، ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنه قال جاء فقراء المهاجرين فقالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلي والنعيم المقيم، فقال: وما ذاك؟ قالوا: كانوا يُصلون كما نصلي، ويصومون كما

نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق. فقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم- أفلا أعلمكم شيئًا إذا فعلتموه سبقتم من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من فعل مثل ما فعلتم؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين».

قال: فقالوا يا رسول الله سمع أخواتنا أهل الأموال بما فعلناه ففعلوا مثله.

فقال- صلى الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»(١).

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾(٢).

• **المبحث التاسع: بيان أهوال البعث يوم القيامة وكمال قدرة الله تعالى:**

الآيات من [٤١] إلى آخر السورة الآية [٤٥]

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ * نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾

المناسبة: في الآيات السابقة أمر من الله تعالى لرسوله- محمد صلى الله عليه وسلم له بالصبر على أذى الكفار وعلى ما يقولونه له من تكذيب وغيره، ثم أمر له- صلى الله عليه وسلم- وإرشاد وتوجيه منه تعالى إلى ما

---

(١) البخاري كتاب الآذان «باب» الذكر بعد الصلاة.

(٢) سورة طه، آية ١٣٠.

يعنيه على الصبر وذلك بتسبيح الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات أعقاب الصلوات كلها.

وفي هذه الآية: أمره سبحانه وتعالى بأن يلقي سمعه لما يخبره به تعالى من أهوال يوم القيامة، والاستماع على نداء الكفار بالويل والثبور من مكان قريب فقال تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

تفسير الآيات مع بيان المناسبة والمعاني الغامضة:

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَمِعْ﴾ أمر بالاستماع، والظاهر أنه أريد به حقيقته، والمستمع إليه محذوف للتهويل والتعظيم.. أي واستمع أيها الرسول الكريم- لما سأخبرك به من أهوال يوم القيامة. ثم بين سبحانه ذلك فقال: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي استمع استماع تنبيه وتيقظ أيها الرسول الكريم أخبار ما يوحي إليك من أحوال القيامة: يوم ينادي المناد، وهو إسرافيل، أو جبريل فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة إن الله أمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل: استمع النداء، أو الصوت أو الصيحة، وهي صحيحة القيامة أعني: النفخة الثانية في الصور من إسرافيل، وقيل: إسرافيل ينفخ، وجبريل ينادي أهل المحضر، ويقول: هلموا للحساب، فالنداء على هذا في المحشر.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال قتادة: قال كعب الأحبار: يأمر الله ملكا أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المنقطعة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء(١).

---

(١) ابن كثير ٧/٣٨٨.

وفي ورود الأمر بالاستماع مطلقًا، ثم توضيحه بما بعده، تهويل وتعظيم للمخبر به، لما في الإبهام، ثم التفسير، من التهويل، والتفخيم لشأن المحدث عنه[1].

قال الألوسي: وانتصب قوله ﴿يَوْمَ﴾ بما دل عليه ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي يوم ينادي المنادي يخرجون من القبور، وقيل: المفعول محذوف تقديره نداء المنادي، وقيل: تقديره نداء الكافرين بالويل والثبور و﴿يَوْمَ﴾ ظرف لذلك المحذوف.

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيث يصل النداء إلى كل فرد من أفراد المحشر. وهو صخرة بيت المقدس، على ما روي عن يزيد بن جابر وكعب وابن عباس وقتادة وهي على ما روي عن كعب أقرب إلى السماء بثمانية عشر ميلا[2].

وفي الكشاف أنها أقرب إليها بأثنى عشر ميلا وهي وسط الأرض.

قال الآلوسي: وأنت تعلم أن مثل هذا لا يقبل إلا بوحي، ثم إن كونها وسط الأرض مما تأباه القواعد في معرفة العروض والأطوال، ومن هنا قيل: المراد قريب ممن يناديهم فقيل: ينادي من تحت أقدامهم، وقيل: من منابت شعورهم. ومن المفسرين من قال: المراد بقربه كون النداء منه لا يخفى على أحد بل يستوى في سماعه كل أحد. وهذا ما نرجحه ونميل إليه لقوته، والنداء في كل ذلك على حقيقته[3].

---

(١) الآلوسي ١٩٣/٢٦ والقرطبي ١٩/١٧.

(٢) الميل: مقياس للطول قدر قديما بأربعة آلاف ذراع، وهو الميل الهاشمي، وهو بري وبحري، فالبري يقدر بـ١٦٠٩ من الأمتار، والبحر بـ ١٨٥٢ من الأمتار. المعجم الوسيط ص ٨٩٤.

(٣) الكشاف ٣٩٣/٤، الآلوسي ١٩٤/٢٦.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ وهي النفخة، و﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ والعامل فيها ما دل عليه قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ وقد ذكرناه.

والمعنى: أي يسمعون صيحة العبث منّ القبور. والحشر للجزاء، سماعا ملتبسًا بالحق الذي لا يحوم حوله باطل، و﴿بِالْحَقِّ﴾ في موضع الحال من الصيحة، أي يسمعونها ملتبسة بالحق الذي هو البعث ﴿ذَلِكَ﴾ اليوم هو ﴿ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ من الأجداث كأنهم جراد منتشر.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[1].

ثم بين سبحانه وتعالى ما يدل على كمال قدرته فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ أي إذا بقدرتنا وإرادتنا نحيي ونميت من نشاء وإحياءه أو إماتته وحدنا مرجع العباد ومصيرهم، لا يشاركنا في ذلك مشارك. والجملة مستأنفة لتقرير أمر البعث.

﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ فنجازي كل عامل بعمله ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ أي اذكر أيضًا أيها العاقل يوم تشقق الأرض عمن في باطنها من مخلوقات، فيخرجون إلينا سراعًا.

كما قال: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[2]، وقوله ﴿سِرَاعًا﴾ حال من الضمير في عنهم، والعامل في الحال تشقق، وقيل العامل في الحال هو العامل في يوم أي: مسرعين إلى المنادي ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾

---

(١) سورة يس الآية ٥١، ٥٠.

(٢) سورة الإسراء الآية ٥٢.

أي بعث وجمع، أي ذلك التشقق للأرض وما يترتب عليه من بعث وجمع وحشر ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هين علينا لأن قدرتنا لا يعجزها شيء.

ثم ختم سبحانه وتعالى السورة الكريمة بهذه الآية التي فيها التسلية للرسول- صلى الله عليه وسلم-، ومن التحديد الدقيق لوظيفته، فقال تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي نحن أيها الرسول الكريم- أعلم بما يقوله المشركون في شأنك وفي شأن دعوتك، وسنجازيهم على ذ لك بما يستحقونه من عقاب، فأصبر على أقوالهم، وبلغ رسالة ربك دون أن تخشى أحد سواه.

وأنت لست بسلط عليهم لتجبرهم على اتباعك، وتقهرهم على الدخول في الإسلام، وإنما وظيفتك التذكير بهذا القرآن لمن يخشى عذابي ويخاف وعيدي.

وكما قال تعال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[1].

وكما قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾[2].

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: قالوا يا رسول الله لو خلقتنا فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ وما أنسب هذا الاختتام وبالافتتاح بقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾

اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ويرجو موعدك آمين يا رب العالمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلي اللهم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرً.

---

(١) سورة الغاشية، آية ٢٠، ٢١.

(٢) سورة الرعد، آية ٤٠.

• **الخاتمة:**

وفيها أهم نتائج هذا البحث:

نقول وبالله التوفيق إنه من خلال معايشتي لتفسير آيات هذه السورة المكية الكريمة وهي سورة (ق) والتي بدأت بهذا الحرف المعجز الذي استأثر الله تعالى بعلمه، وأقسم به أي بالقرآن المجيد ذي المجد والشرف وذي الخير الوفير الذي يجد فيه كل طالب مقصوده إنك أيها الرسول الكريم لصادق فيما تبلغه عن ربك من أن البعث حق، والحساب حق، ولكن الجاحدين لن يؤمنوا بذلك، وغير ذلك من القضايا التي عالجتها آيات هذه السورة توصلت إلى نتائج كثيرة من أهمها ما يأتي:

١- أن القرآن الكريم معجز في كلماته وحروفه، وآياته وتآلفه وتناسقه تحدى به الله تعالى الإنس والجن فعجزوا، وسيظل القرآن معجزًا إلى أن تقوم القيامة قال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

٢- حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على قراءة هذه السورة في المجامع الكبار كالجمع والأعياد.

٣- أنها تشتمل على ابتداء الخلق، والبعث، والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

٤- تذكير المشركين بسوء عاقبة المكذبين من قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم فرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة.

٥- بيان علم الله الشامل لكل شيء وبسكرات الموت وما يتبعها من بعث وحساب وثواب وعقاب.

٦- تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم- عما أصابه من قومه، وترشده

(١) سورة الإسراء آية ٨٨.

إلى العلاج الذي يعينه على مداومة الصبر، كما تحكى له أحـوال القيامة ليزداد يقينًا على يقينه.

٧- أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالمداومة على تبليغهم بما أمـره الله تعالى بتبليغه.

٨- أن هذه السورة حلقت بنا في أعماق هذا الكون، وفي أعماق النفس الإنسانية، منذ ولادتها، على بعثها، إلى حسابها، إلـى جزائهـا... بأسلوب مؤثر بديع يشهد أن هذا القرآن من عند الله، ولو كان مـن عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

إلى غير ذلك من النتائج العظيمة:

هذا ونسأل الله تعالى أن يشرح صدورنا، وأن يسير أمورنا، وأن يوفقنا لطاعته ولما يحبه ويرضاه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

- **ثبت المصادر والمراجع:**

١- القرآن الكريم.

٢- تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

٣- تفسير الطبري.

٤- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٥- فتح القدير للشوكاني.

٦- روح المعاني وتفسير السبع المثاني للآلوسي.

٧- البحر المحيط لأبي حيان.

٨- التفسير الوسيط للقرآن الكريم (مجمع البحوث الإسلامية.

٩- تفسير الفخر الرازي.

١٠- تفسير الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل للزمخشري.

١١- حاشية الجمل على الجلالين.
١٢- تفسير سورة (ق) الأستاذ الدكتور/ محمد سيد طنطاوي.
١٣- تفسير سورة (مريم) الأستاذ الدكتور/ إبراهيم نيده.
١٤- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين محمد يعقوب الفيروز ابادي.
١٥- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
١٦- البرهان في علوم القرآن للزركشي.
١٧- مناهل العرفان للزرقاني ط عيسى الحلبي مصر.
١٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني.
١٩- صحيح الإمام مسلم.
٢٠- سنن أبي داود، أحمد.
٢١- سنن ابن ماجة تعليق محمد فؤاد عبد الباري.
٢٢- سنن الترمذي.
٢٣- السنن الكبرى للنسائي.
٢٤- السنن الكبرى للبيهقي.
٢٥- شرح السنة للبغوي.
٢٦- الترغيب والترهيب للمنذري.
٢٧- صحيح ابن حبان.
٢٨- المعجم الأوسط للطبراني.
٢٩- المسند لأبي يعلى.
٣٠- المفردات في غريب القرآن الكريم.
٣١- المصباح المنير ط المكتبة العصرية.
٣٢- مختار الصحاح للرازي ط عيسى الحلبي مصر.
٣٣- المعجم الوسيط.